المربى

الفلسفة تربية

التربية فلسفة ، وعلم ، وفن . وقد بحث ديوى فى التربية من هذه الجهات الثلاث . وصنف فى تجلية وجهة نظره من المقالات والكتب الشىء الكثير ، فضلا عن إنشاء « المدرسة المعملية » ليجرب فيها نظرياته ويختبر صحتها .

ونبدأ بالحديث عن التربية باعتبار أنها هى الفلسفة وأن الفلسفة هى التربية ؛ وهذا شىء آخر خلاف فلسفة التربية . ولندع صاحب الرأى يتحدث عن ذلك فى سيرته الفلسفية حيث يقول : « ومع أن كتابى المسمى " الديمقراطية والتربية " ظل لأعوام كثيرة الكتاب الذى عرضت فيه فلسفتى أكمل عرض ، فلست أعرف أحداً من النقاد الفلاسفة — المتميزين عن المعلمين — قد رجع إليه . فأثار ذلك دهشتى وتساءلت : أيعنى ذلك أن الفلاسفة بوجه عام — مع أنهم هم أنفسهم معلمون عادة — لم ينظروا إلى التربية نظرة فيها من الجد ما يجعلهم يسلمون بأن أى شخص عاقل قد يرى من الممكن أن التفلسف يجب أن يدور حول التربية باعتبار أنها أقصى اهتمام إنسانى يتركز معه علاوة على ذلك مشكلات أخرى كونية وأخلاقية ومنطقية »[1] .

ولم يكن ديوى أول من جعل الفلسفة هى التربية . فقد كان سقراط ، شيخ الفلاسفة معلماً للشباب ، وكتب أفلاطون « الجمهورية » وبسط فيها نظاماً للتربية توجه بالفلسفة . وافتتح الأكاديمية يربى فيها طائفة من الفلاسفة تربية فاضلة رشيدة ويعدهم ليكونوا حكاماً للمدينة . وكان سقراط يرى أن الفلسفة هى البحث فى الإنسان من جهة أخلاقه وتقاليده وأحواله الاجتماعية

(١) من المذهب المطلق إلى التجريبى — ص ٢٣ .

ابتغاء خيره وسعادته بمعرفة طبيعته الحقة لا باتباع العرف السائد والعقائد البالية . وذهب أفلاطون إلى أن الفلسفة هى « البصر[١] » vision بالحقيقة ، وهى هداية النفس الإنسانية وتحويلها من عالم التغير والحس إلى عالم المثل والحقائق الثابتة . وان تبلغ الفلسفة غايتها إنْ عند سقراط أو عند أفلاطون إلا بالتربية . أى صياغة النفس الإنسانية وطبعها على الحق والخير والجمال . ولم يكن طريق التربية عندهما سهلا ، بل كان يقتضى دربة طويلة ، وممارسة شاقة لعلوم شتى ، وبخاصة العلم الرياضى كما نصح به أفلاطون . والفلسفة عندهما فضلا عن ذلك « منهج » ، فهى عند سقراط طريق للبحث يعتمد على التوليد ، وعند أفلاطون ضرب من الجدل يؤدى إلى ذلك البصر بالحقيقة . والتربية عندهما سبيل إلى عالم أفضل ، وبحث فى الإنسان وسلوكه ونظمه الاجتماعية يفضى إلى ترقيته .

وكانت الفلسفة على عهد سقراط وأفلاطون حية لاتصالها المباشر بالمجتمع وبالناس عن طريق الحوار والجدل ، وكان لها من أجل ذلك معنى وأدت وظيفة . فلما انعزلت عن المجتمع واقتصرت على المناقشات داخل جدران المدارس أضحت لفظية ، ومجادلات فارغة ، ولم يعد لها معنى مفهوم ولا أصبحت تؤدى وظيفتها . فإذا عادت الفلسفة إلى الحياة مرة أخرى واتصلت بالناس تبحث فى أمورهم ، فلا جرم أن تكون عندئذ هى التربية بالمعنى الواسع لهذا الاصطلاح .

وقد أخذ ديوى عن اليونانيين فى الفلسفة أموراً ، ورفض أموراً أخرى . أخذ عنهم روح الفلسفة واتجاهها إلى البحث فى الأمور الإنسانية . ومحاولة الرقى بالمجتمع عن طريق التربية ، والجرأة فى مهاجمة التقاليد الجامدة التى لا تساير الزمن ، وذلك بالنظر الحر ، والنقد المر ، حتى لقد يبلغ بالفيلسوف أن ينتقد نفسه . ولقد حوكم سقراط لحرية فكره ، ومرارة نقده ، وتعليمه الشباب الثورة على التقاليد والعرف ، كما انتقد أفلاطون نفسه فى كثير من المحاورات .

---

(١) يقال البصر ، والرؤية ، والكشف ، وسنعرض لهذه المعانى فيما بعد . ونحيل القارئ إلى كتابنا عن أفلاطون الصادر فى هذه السلسلة زيادة فى العلم .

ونحن إذا رجعنا إلى ديوى رأينا أنه يحذو حذو سقراط وأفلاطون . فهو يهتم بالإنسان ويجعل الفلسفة هى البحث فى أموره والأخذ بيده ؛ وهو يهاجم كما هاجم سقراط وأفلاطون التقاليد الموروثة التى كانت تلائم زماناً سالفاً ، ويحاول أن يجعل المجتمع يساير الظروف الجديدة السريعة التطور .

ولكن إلى هنا يقف تأثر ديوى ، وينقلب إلى خصم عنيد للتفكر اليونانى وللفلسفة المأثورة عن الأفلاطونية والأرسطاليسية . فهو لا ينفك يطعن على ذلك التقليد الذى سرى فى التفكير منذ القديم حتى العصر الحاضر من أن النظر أعلى مرتبة من العمل ؛ ومن أنّ الناس درجات أدناهم الجمهور وأعلاهم الفلاسفة ، مما يتنافى مع المبدأ الأساسى للديمقراطية ؛ ومن وجود حقائق ثابتة أعلى من الوقائع الجارية فى الخبرة الإنسانية والمستمدة من المشاهدات والتجارب ، وظل حياته كلها يدافع عن هذه النزعة التجريبية ، ويذود عن الديمقراطية ، ويطعن فى وجود حقائق ثابتة خارج أنفسنا مهما تكن هذه الحقائق . وبذلك أنزل — كما فعل سقراط من قبل — الفلسفة من السماء إلى الأرض . لا بمعنى أنه حوّل الاتجاه من النظر فى الطبيعة إلى البحث فى الإنسان . بل على معنى أنه أنزل الفلسفة من عرش الحقائق المتعالية الموجودة وجوداً مطلقاً إلى مجرى الخبرة الإنسانية ، ولم يعترف إلا بوجودها داخل الخبرة وثمرة لها .

نعم ، الفلسفة هى طلب الحق ، ولكنه حق ينمو شيئاً فشيئاً داخل الفرد ويتضح معناه كلما شب ونما وترعرع واتصل بغيره من الأشياء والناس . وفرق واضح بين أن تُفرض الحقائق على الناس يتعلمونها منذ الصغر . وينقشونها فى عقولهم كما تنقش على اللوح المحفوظ . ويرغمون على قبولها كما تحكى لهم فيرددونها ألفاظاً جوفاء لا يفقهون لها معنى . وبين أن يسعى الناس — منذ الصغر — إلى معرفة الحقائق بأنفسهم . وباتصالهم فى سلوكهم مع العالم الذى يعيشون فيه سواء أكان عالم الطبيعة أم عالم الإنسان . ومن هذا الوجه كانت الفلسفة هى التربية . لأنها ينبغى أن تصاحب المرء منذ الصغر ، لا ليتعلم

الحقائق ، بل ليتعلم أن يكشف عنها حين يستخدمها فى تحقيق أغراضه ، ولا غرو فالفلسفة هى « الكشف vision »[1] كما عرفها أفلاطون ، وكما ارتضى وليم جيمس أن تكون ، وتبعه فى ذلك ديوى .

والفلسفة هى النظرة الشاملة المحيطة بالعالم والحياة فى كلٍّ واحد متناسق ، ومن هنا كانت الفلسفة هى « حب الحكمة » ، أى الحكمة التى تؤثر فى سير الحياة ، فهى نظرة شاملة إلى العالم تضم أشتات المعارف الجزئية التى يصل إليها العلم . ونحن فى حاجة إلى فلسفة تنظم أنواع السلوك المتضاربة حين تتنازع الأمور الدينية والعلمية والاقتصادية والجمالية مما يقتضى ضرباً من التنسيق بينها . ولما كان المجتمع دائم التغير ، فنحن فى حاجة إلى الفلسفة التى تهدينا إلى التكيف الاجتماعى مع هذه الظروف المتغيرة باستمرار . أما إذا عزلنا الفلسفة ، وعاش أصحابها فى أبراج عاجية يطلبون التفلسف للتفلسف ، أصبحت الفلسفة رياضة ذهنية ، وألفاظاً جوفاء ، لا صلة لها بالحياة ، ولا يفهمها إلا الطائفة التى تسمى أنفسها فلاسفة . يقول ديوى : « أما إذا قربنا المسائل الفلسفية من ناحية ما يقابلها من ضروب الاتجاهات الفكرية ، أو من ناحية ما يترتب على العمل بها من تبديل فى التربية العملية ، فلن تعزب عنا أوضاع الحياة التى تعبر عنها مسائل الفلسفة. وفى الحق أن كل نظرية فلسفية لا تؤدى إلى تبديل فى العمل التربوى لا بد أن تكون مصطنعة . ذلك بأن وجهة نظر التربية تعيننا على تفهم المشاكل الفلسفية فى منابتها التى نشأت فيها وزكت ، أى فى مواطنها الطبيعية حيث يؤدى قبولها أو رفضها إلى تبديل فى الناحية العملية فى التربية .

وإذا رضينا بفهم التربية على أنها عمليةتكوين النزعات الأساسية الفكرية والعاطفية فى الإنسان تلقاء الطبيعة وأخيه الإنسان ، لم نخش حينئذ تعريف

---

(١) القول فى ترجمة هذا الاصطلاح أن الفلسفة « رؤية » لا يؤدى المعنى المقصود . والكشف على الاصطلاح الصوفى يلتقى مع مذهب أفلاطون ، وإلى حدما مع جيمس ، ولكن ديوى تخلص من هذه النزعة الصوفية تماماً ، والكشف عنده علمى ، ولذلك ساق العبارة التى ذكرناها بعد مناقشته تطور العلم والفلسفة والصلة بينهما — انظر تجديد فى الفلسفة ص ٨٣ .

الفلسفة بأنها : النظرية العامة للتربية »[١].

ويتضح من ذلك أن الفلسفة ضربان ، ضرب متصل بالحياة يستمد وجوده وطبيعته ووظيفته منها ثم يحاول بعد ذلك تنظيم هذه الحياة وتوجيهها ، وليس ذلك شيئاً آخر سوى التربية ؛ وضرب آخر ينعزل عن الحياة ، فيفقد معناه ويصبح فلسفة لفظية . ويشتغل بهذه القضايا الميتافيزيقية التى ان يصل منها إلى نتيجة .

والفلسفة التى يصطنعها ديوى هى الضرب الأول ، المتصلة أوثق الاتصال بالحياة . فهذا ما كان من شأن الفلسفة التى سنزيدك عنها بياناً فيما بعد، والتى إنما أوجزنا فى شرح ملامحها العامة ههنا لنبين أنها هى « النظرية العامة للتربية » . أما التربية ذاتها ، وأنها عملية تكوين النزعات الأساسية الفكرية والوجدانية فى الإنسان ، فهذا ما يحتاج منا إلى مزيد من الشرح والبيان .

معنى التربية

ونبدأ باللفظة فى أصل معناها اللغوى . ففى الإنجليزية Education مأخوذة من اللاتينية بمعنى القيادة[٢] . أما فى اللغة العربية فالتربية من ربى الرباعى ، أى غذى الولد وجعله ينمو . وربى الولد هذبه ، فأصلها ربا يربو ، أى زاد ونما . ومن جعل أصلها « ربَّ » فلا بد أن يجعل المصدر تربيباً لا تربية . يقال ربَّ القوم ساسهم وكان فوقهم ، وربَّ النعمة زادها ، وربَّ الولد رباه حتى أدرك . صفوة القول التربية عند العرب تفيد السياسة ، والقيادة ، والتنمية ؛ وكان فلاسفة العرب يسمون هذا الفن « سياسة » كما هو معروف عن ابن سينا مثلا فى رسالته « سياسة الرجل أهله وولده » . وكان العرب يقولون عن الذى ينشئ الولد ويرعاه المؤدب ، والمهذب ، والمربى ، والمعلم ، غير أن لفظة المؤدب أشيع ،

---

(١) الديمقراطية والتربية ص ٣٤٠ .

(٢) انظر الديمقراطية والتربية ص ١١ — والأصل اللاتينى هو e-ducere ، أى يقود خارجاً ، ومنه جاء يقود الولد أى يرشده ويهذبه .

لأنها تفيد الرياضة والسياسة وتدل على العلم والأخلاق معاً . أما المعلم فاصطلاح يفيد « تلقين » العلم قبل كل شيء ، فتكون مهمته عرض المعلومات على التلميذ ليحفظها . ولذلك كان التعليم شيئاً والتربية شيئاً آخر ، أو قل إن التربية تحمل معنى أخلاقياً والتعليم معنى علمياً[1] . وهذه الموازنة اللغوية بين أصل الكلمة فى معناها اللاتينى ومعناها العربى ، يفيد القارئ فى توضيح ما نهدف إليه ، وقد فعل ذلك ديوى حين ناقش معنى التربية . ولعل ما عرضناه من التمييز بين التربية والتعليم يزيد نظرية ديوى بياناً من أن التربية التقليدية التى درج الناس عليها ، والتى تعتمد على الحفظ والتلقين ، هى التى يجب معارضتها ، والقيام بتربية حديثة تقوم على فلسفة جديدة ، وعلى نظر جديد لطبيعة الإنسان والمجتمع .

دستور التربية

وإذا كانت صيحة ديوى التى نادى بها فى أواخر القرن التاسع عشر ، وظل يدافع عنها بقلمه وتجاربه وكفاحه ، قد أثمرت أخذ أمريكا وكثير من الدول بالنظام التربوى الجديد الذى نادى به ، فلا يزال بعض المعلمين فى مصر — مع الأسف الشديد — على الرغم من معرفتهم بالنظريات الحديثة فى التربية ، ومن تغيير اسم وزارة المعارف إلى وزارة التربية والتعليم ، يجنحون إلى الطريقة التقليدية وهى طريقة التلقين . ذلك أن التربية الحديثة « عقيدة وإيمان » ينبغى أن يرسخ فى قلوب المعلمين القائمين على تنشئة الطلاب ، كما ينبغى أن ينتشر الوعى التربوى الصحيح القائم على فلسفة خاصة فى الحياة بين جميع الأفراد ، لا بين المعلمين فى المدارس فقط .

وقد نجح ديوى فى نشر فلسفته التربوية لأنه آمن بها ، وكتبها دستوراً

---

(١) وهذا هو السبب فى أن الحكومة المصرية غيرت اسم وزارة المعارف وجعلته « وزارة التربية والتعليم » لتتمشى مع النزعات الحديثة فى التربية .

لرأيه بعنوان « عقيدتى التربوية » [١] فى سنة ١٨٩٧ ، أى بعد شغله منصب مدير مدرسة المعلمين فى جامعة شيكاغو بثلاث سنوات . والإيمان شرط ضرورى من شروط الفكر ، لأنه هو الذى يسوقه إلى مجال التنفيذ ويحققه بالعمل . ولذلك كتب ديوى أيضاً « عقيدته » الفلسفية ، التى تبدأ بالإيمان . ولا خير فى نظريات تربوية ، أو اجتماعية ، أو سياسية تعيش فى أذهان أصحابها دون أن تنزل إلى ميدان التجربة ، وتنتقل — كما يقول الفلاسفة — من وجود بالقوة إلى وجود بالفعل . فلا عجب أن يكون ديوى قد حقق نظرياته التربوية فى تلك المدرسة التى سماها بالمعملية . والتى اشتهرت فيما بعد باسم مدرسة ديوى .

وتتلخص نظرية التربية كما صورها فى عقيدته فى الأمور الآتية :

(١) إن التربية ظاهرة طبيعية فى الجنس البشرى وبمقتضاها يصبح الفرد وريثاً لما حصلته الإنسانية من حضارة .

(٢) تتم هذه التربية لاشعورياً ، عن طريق المحاكاة بحكم وجود الفرد فى المجتمع ، وبذلك تنتقل الحضارة من جيل إلى آخر .

(٣) التربية المقصودة تقوم على العلم بنفسية الطفل من جهة ومطالب المجتمع من جهة أخرى . فالتربية ثمرة علمين هامين هما علم النفس وعلم الاجتماع .

* * *

وإذا كانت ماهية التربية أن يصبح الفرد وريثاً للحضارة الإنسانية — عن

---

(١) منذ أن صدر هذا الدستور التربوى بعنوان "My Pedagogic Creed" ولا يزال يطبع ، وقد حصلت على نسخة من الأستاذ شارلس لى Charles Lee أستاذ التربية بجامعة واشنجطن حين كنت أستاذاً زائراً بها عام ١٩٥٦ ، وفيها يقول الأستاذ مورجان فى التقديم لهذه الرسالة : « إنها تبلغ فى أهميتها بالنسبة إلى الثورة التربوية السائدة الآن فى أمريكا مبلغ رسالة توماس بين « العقل السليم Common Sense » فى الثورة السياسية عام ١٧٧٦ . إنه إنجيل المهنة لكل معلم . . . » وسننشر هذا النص كاملا فى آخر الكتاب .

قصد أو عن غير قصد — فالتربية هي الفلسفة ، لأن الحضارة هي الفلسفة أو هي « دالة function » [١] الحضارة ، من جهة أن الفلسفة توضح من الناحية الفكرية الأصول التي تقوم عليها الحضارة في عصر ما ، والاتجاهات الغالبة فيها ، هذه الاتجاهات التي تخضع للقيم التي يخلعها الناس على الأشياء وعلى أنواع السلوك . ونحن إذا تتبعنا تواريخ الحضارات رأينا ألواناً من الصراع بين ما يهتم به طائفة من أفراد الأمة . ويؤثرونه ، ويعيشون من أجله . ويضحون في سبيله ، ويتمسكون به ؛ وبين ما يحمله طائفة أخرى من ثورة على هذه المقدسات . ورغبة في الهرب من المأثور المتداول إلى قيم جديدة في الحياة . وللقدماء فلسفتهم المعبرة عن معتقداتهم . وللمحدثين فلسفتهم الناطقة بآمالهم . غير أن الفلسفة . لأنها ضربٌ من التفكير الواعي . ليست مجرد انعكاس للحضارة القائمة . إذ كل حضارة فهي متغيرة لأن البشرية دائمة التغير . فالفلسفة هي هذا التغير ، أكثر منها تعبيراً عن النظم الثابتة في المجتمع . وظهور فلسفة جديدة ينبئ عن تغيير في مجرى الحضارة ، والفلسفة هي التي تهدي الناس إلى الحضارة الجديدة بما ترسمه من مثل وأهداف .

فالفلسفة إذن تؤدي وظيفة هامة للحضارة ، وتتشكل الحضارات بحسب الفلسفات التي توجهها . غير أن الحضارة ليست مفهوماً مجرداً ، بل هي مختلف النظم الاقتصادية والسياسية والدينية والعلمية التي يحملها الأفراد على أكتافهم ويحققونها في أشكال متجسدة . وينبغي أن يتعلم كل فرد كيف يعيش وسط هذه البيئة الحضارية التي يوجد فيها . وأن يرتفع إلى مستوى نظمها المختلفة . وهذه العملية من التعلم هي التي تسمى تربية .

التربية والحياة

وهذا يسلمنا إلى تعريف ديوي التربية في استهلال كتابه « الديمقراطية

---

(١) Philosophy and Civilisation, p. C. — وانظر بقية هذه المقالة كذلك .

والتربية » أنها ضرورة من ضرورات الحياة . يقصد بذلك أنها عملية بيولوجية تفيد الإنسان من جهة أنه كائن حى . وهذه الصلة بين التربية والبيولوجيا (علم الحياة) إنما استمدها ديوى من تطبيق الداروينية التى أصبحت بدعة العصر منذ النصف الثانى للقرن التاسع عشر على الفرد والمجتمع ، أى على علم النفس وعلم الاجتماع . فالكائن الحى من طبيعته الاستمرار والتجدد والنمو المطرد عن طريق تفاعله مع البيئة الخارجية . وإذا كانت الكائنات الحية كالنباتات والحيوانات المختلفة تستمر فى الحياة بدافع هذا التكيف المادى مع البيئة ، فالإنسان إلى جانب استمراره الحيوى كغيره من الكائنات الحية ، يستمر كذلك استمراراً اجتماعياً يتميز بتجدد معتقداته ومثله العليا وآماله وآلامه وسعادته وشقائه . معنى الحياة هو الدوام بالتجدد المستمر .

والحياة الاجتماعية تسمى حياة لأنها تتصف بصفة الدوام بالتجدد المستمر . ولكن ديوى يسمى هذه الحياة باسم خاص ، هو « الخبرة Experience » . ولهذا الاصطلاح منزلة خاصة عنده ، حتى لقد سمى بحق « فليسوف الخبرة » . وهو يقصد بذلك تفاعل الفرد مع البيئة الاجتماعية فيكتسب من هذا التفاعل العادات والتقاليد وأساليب التفكير والمثل العليا والمطامح وغير ذلك . وعندئذ يصبح « الفرد » حاملا لهذه الأساليب والمعايير ، « وناقلا » لها من حياة راهنة إلى حياة مقبلة . وبذلك يتيسر للمجتمع الاستمرار والدوام والتجدد . واكتساب الفرد الخبرة بالحياة الاجتماعية ، كانت هذه الخبرة غير مقصودة أم مقصودة ، فهو التربية . والتربية هى السبيل إلى تجدد الحياة الاجتماعية واستمرارها ، فالتربية هى « بمثابة التغذى والتناسل للحياة الفسيولوجية »[1] . ولكن كلما ازدادت الجماعات تعقداً فى تركيبها وتنوعاً فى مرافقها ، ازدادت الحاجة إلى التعليم والتعلم المقصودين .

والتربية المقصودة . المنظمة العلمية ، هى اليوم أكثر ضرورة بعد التقدم العظيم الذى شهدته الإنسانية فى العصر الحاضر . وهذا ما فعله ديوى .

---

(١) الديمقراطية والتربية ، ص ١٠

والبيئة الاجتماعية هى المجال الحيوى الذى بدونه لا تتحقق التربية على وجهها الصحيح . فالبيئة كالماء بالنسبة إلى الأسماك . والبيئة هى مجموع الظروف التى يعيش فيها الفرد ، والتى تؤثر فيه وتبعث فيه ألوان النشاط والاستجابات ، ويتم بالتفاعل معها كسبه الخبرة اللازمة . والبيئة هى التى تكون الاتجاهات العقلية والوجدانية فى سلوك الأفراد . وتذكى فيهم ضروباً من البواعث وتعمل على تقويمها . ويتعلم الطفل من وجوده فى البيئة الاجتماعية أموراً ثلاثة . هى اللغة وأساليب الكلام . وآداب السلوك وموازين الأخلاق ؛ والذوق السليم ومعايير الجمال. فإذا كان للبيئة هذا الأثر بل هذا الخطر فينبغى العناية بوضع الطفل فى بيئة نتخيرها حتى تؤتى ثمارها . وهذه البيئة المتخيرة هى المدرسة التى تعد الطفل لفهم الحضارة المعقدة التى سيعيش فيها . وتطبعه على الخير وتبرز محاسن المجتمع ، وتوحد بين الطوائف الاجتماعية المختلفة وتصهر أفرادها فى بوتقة واحدة .

فنحن حين نتكلم عن التربية من جهة تأثيرها فى المجتمع ، وفى الحضارة ، وفى مستقبل الإنسانية ؛ لا بد أن نتعرض للمدرسة من جهة أنها هى البيئة الخاصة التى يعيش فيها الطفل يتلقى ما يريد منه المجتمع أن يكون عليه فى المستقبل .

وهنا تعرض مشكلات عدة ينبغى حلها لتؤتى التربية المدرسية ثمرتها . هل نعد الطفل للمجتمع الراهن أو للمجتمع المقبل ؟ وما صورة المجتمع المقبلة ؟ وهل تكون المدرسة صورة مصغرة للمجتمع بما فيه من محاسن ومساوئ ، وفضائل ورذائل ؛ أو تكون نموذجاً مثالياً لما ينبغى أن يكون عليه المجتمع الفاضل ؟ وألا نخشى عندما ينزل الشاب إلى معترك الحياة العقلية أن يصطدم بالواقع المرير فلا يستطيع أن يساير المجتمع ويفشل فى سلوكه ؟

كانت المدرسة حتى القرن الماضى ملائمة لمجتمع له طابع اقتصادى خاص ،

يعتمد على الزراعة وعلى الورش والمصانع الصغيرة ، ويقوم منذ أيام اليونانيين على رفع طبقة المفكرين والأدباء على أصحاب المهن اليدوية . وعنيت المدرسة بتثقيف هذه الفئة الخاصة بهذا اللون من المعارف النظرية التى تقتنى بالحفظ والتلقين . ولكن العالم كله أخذ يتطور بسرعة سريعة نحو التصنيع . ومر بعصر البخار ، ثم الكهربا ، وأخيراً — ولوأن ديوى لم يشهد إلا بداية هذا العصر — الذرة والفضاء وبعد أن كان المجتمع جماعة صغيرة بسيطة الحاجات إلى حد ما ، اتسعت رقعة المجتمع ، وتعقدت حاجاته . وتعددت مطالب كل فرد فيه . وأصبح من الضرورى أن يفهم هذه الأدوات المختلفة التى يستعملها ويستخدمها كالسيارات والطائرات والمذياع والتليفون وغير ذلك من آلاف الآلات المعقدة التى تحتاج فى استعمالها إلى معرفة مستوى ليس بالقليل من المعلومات العلمية والفنية .

ولا سبيل إلى كسب هذه المعلومات إلا فى المدرسة . ولا بد أن تغير المدرسة من أساليبها القديمة التى كانت تعتمد على الحفظ والتلقين حتى يكسب التلميذ بعض معلومات يتحلى بها ويرفع بها مستواه على أصحاب المهن والحرف ؛ وأن تصطنع المدرسة أسلوباً جديداً فى التربية يمهد للتلميذ أن يشارك مشاركة فعالة فى المجتمع المعقد الحديث .

وظيفة المدرسة

وللمدرسة بوجه عام وظائف أربعة تؤديها للمجتمع . الأولى : أن المجتمع جهاز معقد التركيب فيه نظم اقتصادية وسياسية ودينية وفنية يصعب على الفرد فهمها إذا تُرك وشأنه ، ووظيفة المدرسة تهيئة بيئة مبسطة يفهم الأطفال منها الحياة الاجتماعية ، ولا تزال تتدرج وإياهم فى توضيح النظم الأكثر اشتباكاً وتعقيداً . والثانية : أن تخلق المدرسة للناشئة مجتمعاً مصفى من الشوائب ، وتؤكد لهم ما فى المجتمع من محاسن ، فتصبح بذلك أداة للرقى كأنها تطهر العادات الاجتماعية الموجودة وتسمو بها . والثالثة : إقرار التوازن بين مختلف عناصر البيئة

الاجتماعية من نحل دينية وأجناس متبـــاينة وغير ذلك ، فتكون المدرسة هى البوتقة التى يصهر فيها أفراد المجتمع ويتقاربون فى مشاربهم وتقاليدهم وعاداتهم[١] والرابعة : توحيد نفسية الفرد حتى لا تتجاذبه طوائف الأمة المختلفة فتتفكك نفسيته [٢].

وتستطيع المدرسة أن توجه الناشئة بما يجعلهم يشاركون فى المستقبل فى حياة الجماعة . ولتحقيق هذه الغاية يجب العدول عن التربية التقليدية التى كانت تعتمد على الكتب والتى يحفظها التلاميذ عن ظهر القلب ، إلى التربية عن طريق النشاط والمشاركة الفعالة بين الطلبة حتى يحس الطفل بأن ما يتعلمه ليس منعزلا عن الحياة بل مستمداً منها .

ذلك أن المجتمع هو : « عدد من الناس يرتبطون معاً لأنهم يعملون سائرين فى طريق مشتركة ، وروح مشتركة ترجع إلى غايات مشتركة . وتتطلب الحاجات والغايات المشتركة تبادلا نامياً فى الفكر ووحدة نامية فى التعاطف الوجدانى . والسبب الأصيل فى حجز المدرسة الراهنة عن تنظيم نفسها كوحدة طبيعية اجتماعية هو فقدان هذا العنصر من النشاط المشترك والخلاق » [٣]

من أجل ذلك نادى ديوى بضرورة اعتماد المدرسة على نشاط التلاميذ وعلى اشتراكهم فى العمل حتى تكون المدرسة صورة مصغرة للحياة الاجتماعية ، وحتى يكون للعلوم المختلفة التى يدرسها كاللغة ، والحساب ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والطبيعة ، والكيمياء ، وغير ذلك . لها معنى واقعى مستمد من الحياة . وليست مجرد

---

(١) هذه الوظيفة الثالثة تعكس صورة المجتمع الأمريكى بوجه خاص وتعدد أجناسه وثقافاته ومذاهبه الدينية ، ولذلك كانت المدرسة أداة ضرورية للتوحيد . والمقصود المدرسة العامة المستعدة لقبول الأطفال من أى نوع . . أما إذا اقتصرت المدرسة على قبول طائفة معينة ، مثل مدارس الأرمن فى مصر ، أو المدارس اليونانية ، أصبحت المدرسة عاملا على الانفصال لا التوحيد .

(٢) الديمقراطية والتربية ص ٢١ — ٢٤

(٣) The School and Society, p. 14

نظريات تقرأ فى الكتب وتحفظ عن ظهر قلب دون أن يستبين التلميذ مالها من صلة بالحياة الاجتماعية .

المدرسة التقليدية

يجب إذن أن يتغير نظام المدرسة التقليدية ، حتى يتفق مع نزعات الطفل النفسانية ، وحتى تشبع ما فيه من حيوية وما عنده من نشاط ، كما يجب أن يتغير هذا النظام حتى يلائم المجتمع الجديد الدائم التغير .

كانت المدرسة التقليدية معدة إعداداً خاصاً يتفق مع إلقاء المعلومات على التلاميذ وكيفية تلقيهم وحفظهم لهذه المعلومات ، إلى جانب ما تطبعهم عليه المدرسة من اتباع النظام والهدوء والطاعة والنظافة وغير ذلك من فضائل أخلاقية معروفة مشهورة . ولذلك كانت المدرسة عبارة عن بناء فيه فصول دراسية يجلس فيها التلاميذ إلى « أدراج » ليكتبوا ما يملى عليهم فى جلسة تمتاز بالهدوء والأدب والنظام . فلما رغب ديوى أن يقلب المدرسة إلى بيئة لا يضيق فيها على نشاط التلاميذ . ويسمح لهم بالحركة والعمل إنْ فى داخل الفصل الدراسى حيث يتلقى العلوم النظرية ، أو فى خارج الفصل الدراسى فى معامل الطبيعة والكيمياء ، أو الحديقة والفناء والورشة ، راح يبحث فى المدينة كما يقول : « عن تخت وكراس تبدو ملائمة تماماً من جميع النواحى الفنية والصحية والتربوية لحاجات الأطفال . ووجدنا صعوبة كبيرة فى العثور على حاجتنا ، وأخيراً أبدى صاحب دكان ، وكان أذكى من الباقين ، هذه الملاحظة : أخشى أن ليس عندنا ما تريد ، فأنت تطلب شيئاً يمكن أن يعمل عليه التلاميذ ، أما هذه فإنها معدة للاستماع . وهذه العبارة تحكى قصة التربية التقليدية » (١) .

حقاً كانت المدرسة التقليدية مكاناً مهيأ للاستماع لا للابتداع ، فلم يكن فيها « ورشة أو معمل ، أو أدوات ومعدات يمكن أن يبنى بها الطفل ويخلق

(١) The School and Society, p. 31.

ويبحث بنشاط»[١] . غير أن المعرفة لم تعد بعد شيئاً ثابتاً ، فهى تتحرك بنشاط فى جميع تيارات المجتمع نفسه [٢].

المدرسة الحديثة

وإنما جاء تغير موقف المدرسة من تغير المجتمع ذاته . وأعظم تغيير اجتماعى يلوح للذهن بوضوح ، وهو تغيير يغلب على كل شىء آخر ، هو الانقلاب الصناعى ، أى تطبيق العلم على العمل الذى توجته الاختراعات العظيمة ، تلك الاختراعات التى استخدمت الطبيعة على نطاق واسع شاسع . ثم ترتب على ذلك أن أصبح العالم كله سوقاً كبيرة ، تعتمد على مراكز صناعية لتموين هذه السوق . ونشأ عن هذا الانقلاب الصناعى أن تغير وجه الأرض الطبيعى نفسه ، ومحيت الحدود السياسية بين الدول كما لو كانت خطوطاً على خريطة ، وبدلت أساليب العيش بسرعة سريعة تبديلا كاملا ، وتأثرت الأفكار الأخلاقية والدينية ذاتها من جراء هذا التغيير [٣] .

فلا عجب أن يؤثر هذا الانقلاب فى التربية تأثيراً عميقاً قوياً ، بعد أن تغيرت آداب السلوك ، وقواعد المعاملات ، والقيم الأخلاقية ، والنظم الاجتماعية . لهذا يكون من الغريب أن تبقى التربية على ما كانت عليه فى القديم دون أن يصحبها تغيير يلائم هذه الحياة الاجتماعية الجديدة. ويبدو أن مجرد التعديل فى التربية لن يكون كافياً ، بل لا بد من حدوث انقلاب جوهرى كامل ، لاينشأ فجأة . بل يتم شيئاً فشيئاً طبقاً لخطة مرسومة وهدف مقصود . الحق ظهر التغيير فى نواحى كثيرة ، مما قد يبدو للكثيرين أنه مجرد تغيير فى التفاصيل ، أو تحسين فى النظام المدرسى ؛ وهذا يدل على التطور . خذ مثلا تعليم بعض المهن ، دروس

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٩ .

الطبيعة ، مبادئ العلوم ، الفن ، التاريخ ، وانظر إلى تغيير الجو الأخلاقى فى المدرسة ، وعلاقة التلاميذ بالمعلمين ، وغير ذلك مما يفصح عن نزعة الأخذ بنشاط التلميذ ، تر أن ذلك كله لم يكن مجرد صدفة بل ضرورات اقتضتها التطورات الاجتماعية الكبرى . فلا بد أن تنظم هذه العوامل الجديدة ، وأن تقدر حق قدرها ، وأن تضطلع المدارس بالعمل على نشر هذه الأفكار والمثل العليا . ولكى تحقق المدرسة هذه الأغراض ينبغى أن تكون قطعة من الحياة تنهض بالمهام التى تعكس المجتمع الأكبر ، وتزخر بروح الفن والتاريخ والعلم . فإذا استطاعت المدرسة أن تدرب كل طفل أن يكون عضواً داخل هذه الجماعة الصغيرة ، وأن تملأ نفسه بروح الخدمة العامة ، وأن تمده بالأدوات التى يستطيع بها أن يحسن توجيه نفسه ، أمكننا أن نظفر بمجتمع أكبر جدير بما نصبو إليه ، يسوده الجمال والائتلاف[1] .

مبادئ التربية الحديثة

صفوة القول ، تقوم التربية الحديثة على عدة مبادئ تختلف عن المبادئ التى كانت سائدة فى التربية التقليدية ، وهذه المبادئ هى التى تسم المدرسة الحديثة ، أيًّا كان اسمها . أما مبادئ التربية التقليدية فقد لخصها ديوى فى أمور ثلاثة هى :

١ ــ لما كانت مادة التربية تتكون من مجموعات المعارف والمهارات التى أنتجها الماضى ، فمهمة المدرسة الرئيسية نقل هذا التراث إلى الجيل الجديد .

٢ ــ وفى الماضى تكونت كذلك مقاييس السلوك وقواعده ، ومن ثم كان واجب التربية الخلقية لا يعدو بناء عادات السلوك وفق تلك القواعد والمقاييس .

٣ ــ إن الطابع العام للنظام المدرسى ، أى العلاقة بين التلاميذ بعضهم وبعض وبينهم وبين مدرسيهم ، يجعل المدرسة نفسها مؤسسة تختلف الاختلاف

---

(١) المدرسة والمجتمع ص ٢٨ ــ ٢٩ .

كله عن سائر المؤسسات الاجتماعية [١] .

وأساس هذه المبادئ هو . الثبات . ثبات الأهداف ، والوسائل . والنظام المدرسى .

غير أن الفلسفة الجديدة فلسفة تغير فى عالم متغير متطور . ولذلك قامت فلسفة جديدة للتربية تعتمد على مبادئ أخرى . وأول هذه المبادئ هو التعرف على العالم المتطور الذى نعيش فيه بدلا من الحقائق الثابتة التى كان من المفروض أن يقوم العالم عليها . والثانى أننا نعد الناشئة للحياة الراهنة ليخوضوا غمارها ، لا لحياة فى المستقبل مرسومة جاهزة . والثالث أن يكون التعليم تعبيراً عن الذات وتنمية للفرد ، بدلا من القسر الخارجى الذى يفرض على التلاميذ فرضاً . والرابع أن تقوم التربية على النشاط لا على النظام الخارجى . وأخيراً أن يكون التعلم عن طريق الخبرة لا عن طريق الكتب والمتون والشروح ؛ والحفظ والتلقين [٢] .

على أن المبادئ فى ذاتها من جهة أنها مجردة لا تصبح أموراً محسوسة إلا عند التطبيق ؛ وبعد فإنها تتوقف على الطريقة التى تفسر بها عند تطبيقها إن فى المنزل أو فى المدرسة ، وعلى كيفية تطبيقها . ويمكن القول بأن الأساس الذى تستند إليه هذه المبادئ يرجع إلى أمرين فى غاية الأهمية فى فلسفة ديوى ، بل هما حجرا الزاوية فى تفكيره . وهما الخبرة . والحرية .

---

(١) الخبرة والتربية ص ١٠ .

(٢) الخبرة والتربية ص ١٢ ؛ ١٣ .